صفحة من تاريخ التجارة المصرية

التنازع والتخاصم بين مصر والبرتغال على احتكار تجارة الهند

(تابع ما قبلهُ)

وقد روى الشيخ زين الدين صاحب كتاب « تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتكاليين » ان « ابتداء وصولهم الى مليبار كان سنة ٩١٠ للهجرة النبوية (١٤٩٨ م) وصلوا الى فندرينة (Paudarane) في ثلاث سماريات[1] بعد انقطاع موسم[2] الهند ثم خرجوا منها الى بندر كاليكوت في طريق البر واقاموا فيها شهوراً يتعرفون اخبار مليبار واحوالها ولم يشتغلوا بالتجارة بل رجعوا الى بلدهم برتكال . وسبب وصولهم الى مليبار على ما يحكى عنهم طلب بلاد الفلفل لتختص تجارتهُ بهم فانهم ما كانوا يشترونهُ الاَّ من الذين يجلبونهُ من مليبار بوسائط[3] »

هكذا توصل البرتغاليون الى العثور على الطريق البحري الموصل الى بلاد الهند . وسنرى اي انقلاب حصل في بلاد المشرق بسبب هذه الخطوة الاولى . نعم ان تجار العرب قد تنطعوا الى هذا الخطب المقبل عليهم بكلكلهِ فشمروا عن ساعد الجد وتألبوا على احباط فاسكو حتى لا يكون لهم مزاحم في هذه السوق الكثيرة الخيرات . وقد بذلوا كل ما في وسعهم لمنع هذا الدخيل من مشاركتهم في احتكارهم لانهم ادركوا ان هذه المشاركة لا بد ان تفضي بالبرتغال الى الاستئثار بالسوق واقصاء كل من عداهم عنها . فاعتدم فاسكو بنفسهِ على نفسهِ بمباغتاتهِ وتهورهِ في معاملاتهِ حتى ان السامري صاحب كاليكوت ردهُ حيث اتى . فحقد عليهِ فاسكو حقداً عظيماً سنرى آثارهُ عند مجيئهِ هذه البلاد في المرة الثانية . كيف لا يحقد وهو مع كل ما بذلهُ من المجهودات والمصروفات لم يتمكَّن من الرجوع بشيء يذكر الهم الاَّ بعض بالات من الفلفل والبهارات وقليل من الاحجار الكريمة وكمية زهيدة من

---

(١) اسم للسفن التي تستعمل فيها السماسير لربط انواحيها بعضها ببعض بخلاف السفن المستعملة في بحر الهند التي تربط الالياف نواحيها او تكون مؤلفة من جذع شجرة كبيرة وهذا النوع الاخير يطلق الافرنج عليهِ لفظ Yonque وهو اللفظ الذي استعملهُ ابن بطوطة فقال « جنك » ورجمهُ علي « اجناك »

(٢) الريح الشديدة الخاصة ببحار الهند وهي التي يسميها الافرنج Mousson عن اللفظ العربي وان انقطاع موسم الهند وسكون الريح اشار احمد بن ماجد بشاريهِ على فاسكو في رواية قطب الدين

(٣) عن « تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتكاليين » للشيخ زين الدين . طبع لشبونة

اللآلئ والدراري . استخدم هذا الرسق الطفيف بمثابة النموذج والرموز او العينة والمكان للدلالة على اهمية تلك السوق وما فيها من بضايع الثروة واليسار . نعم ان التجربة الاولى لم تأت بالنتيجة المبتغاة من حيث الوجهة التجارية . لكنها افادت اكبر فائدة من حيث انها كانت كالطليعة لارتياد الطريق وتمهيدها للمستقبل القريب . ومن هذه الوجهة كانت هذه التجربة مكللة بالنجاح التام . كيف لا وقد توفق ڤاسكو الى الرجوع من هذه الرحلة بكنز ثمين واعني به رجلاً واحداً .

هذا الرجل كان طليانيًا فتمصر ثم تهند . هذا الرجل كان يهوديًا فتمسلم ثم تنصر — هذا الرجل هو جسپار وما ادراك ما جسپار؟ يهودي من اهل ايطاليا هبط على الاسكندرية في ايام السلطان قايتباي فدرس سوقها التجارية دراسة وافية ثم سافر الى القاهرة فكعبة فبلاد مليبار وهنالك تجوّل في جميع اقطار الهند ووقف على كل احوالها التجارية والسياسية والجغرافية ثم دخل في دين الاسلام وكان في خدمة سلطان كوه (Goa) حينما وصلها ڤاسكو دوجاما فداخلهُ وكاشفهُ بأصلهِ الافرنجي وطلب اليهِ ان يمدّهُ فتنصّر على يديهِ . وحينئذٍ افضى اليهِ بثمرة معارفهِ التي اكتسبها بعد الخبرة والممارسة مدة ٣٠ سنة واحاطهُ علمًا باحوال كاليكوت وغيرها من مدائن الهند والهند الصينية وعرّفهُ بمحاصيلها وقيمها وأسعارها وبما تحتاج اليهِ من السلع والبضائع الاوربية ثم رضي بالذهاب معهُ الى البرتغال . فلا مثل ذلك اليهودي المسلماني المتنصر بين يدي عمانوئيل فرح بهِ وانعم عليهِ برتب سنية كاملة . اما ڤاسكو دوجاما فقد اضاف الملك الى القابهِ لقب « سيد الفتح والملاحة والتجارة في بلاد الحبش والعرب والفرس والهند » . وقد امر الملك بارسال تجربة ثانية الى بلاد الهند تحت امرة كابرال واضاف اليها جاسپار اليهودي المسلماني المتنصر بصفة دليل ومستشار

تحرّك الاميرال كابرال من لشبونة في ٩ مارس سنة ١٥٠٠ (٨ شعبان سنة ٩٠٥) وهو على رأس اسطول حقيقي فيهِ السلاح الكافي لمقاتلة اهل مليبار (اذا لو حاولوا الدفاع عن اوطانهم) ولمحاربة المصريين اذا حدثتهم انفسهم بالمحافظة على مركزهم التجاري والسياسي في كاليكوت . وكان مع كابرال كمية وافرة من النقدين الكريمين ومن البضائع الاوربية لاجل الحصول على الفلفل والابازير بطريق الشراء والمقايضة . غير ان هذا الاسطول تحطم بعضهُ عند رأس الزوابع وطاح بعضهُ في البحار فلم يصل من هذا القسم الثاني امام كاليكوت سوى ست سماريات كانت فيها الكفاية لارهاب السامري بحيث انهُ اذن للبرتغال بالنزول على مدينتهِ وانشاء مخزن فيها للتجارة . فدخلوا كاليكوت على هيئة التجار

واشتغلوا بالتجارات ثم تدرجوا في مطامعهم فبنى لهم كابرال قلعة « شيتاكوتا » اي قلعة الصينيين ووضع فيها حامية لتخفر موالفة من ١٠٠ رجل او ٧٠ او ٦٠ على اختلاف اقوال مؤرخي البرتقال . وحينئذٍ توسعوا في مطالبهم فارادوا ان يستأثروا وحدهم بالسوق دون المصريين فقالوا لعامل السامري : « ينبغي منع المسلمين من تجاراتهم ومن السفر الى بلاد العرب والفوائد الحاصلة منهم يحصل منها اضعافها [1] »

وقد كان للتجار المصريين مكانة ممتازة عند اهل مليبار لصدقهم وامانتهم وكان المسلمون المتوطنون في هذا الساحل مجبورين محترمين عند السامري ورعيته لما اتصفوا به من جميل الخصال ومكارم الاخلاق . فلذلك لم يسمع السامري لطلب البرتقال بل اصاخ لشكوى عملائه المصريين واظهر الميل لهم مما اوجب غضب كابرال فقبض على سفينة عربية ثم اوعز الى رجاله بالاعتداء على المسلمين في المعاملات فهاج العامة على البرتقاليين فقتلوا منهم نحو سبعين او ستين على ما يقول زين الدين . اما مؤرخو البرتقال فيقول بعضهم ان عدد المقتولين من حامية القلعة كان ٣٦ رجلاً و يقول البعض الآخر ان عدد القتلى والجرحى انما كان ٥٠ او ٥٤ وعلى كل حال فقد اتفق مؤرخو الطرفين على ان بقية الحامية لجأت الى الاسطول البرتقالي وان كابرال اصدر امره بضرب المدينة بالمدافع يومين كاملين موجهاً قنابله ونيران مدافعه بنوع خاص الى السفن التجارية المصرية حتى اغرقها بما فيها و بمن فيها من نساء واطفال [2] بهذا الشكل الفظيع القاسي قطع كابرال علاقاته مع السامري و بلاده . ومن العجائب ان هذه الفظاعة كان فيها فائدة كبرى لامبراطور البرتقال لم تكن تخطر له على بال . ذلك ان سلطان كشي وسلطان كنور توددا الى كابرال ليشفيا ما في صدورهما من غل وحزازات واحقاد نحو السامري و بلاده فاغتنم البرتقاليون هذا التوفيق الذي ساقه اليهم المقدور وذهبوا الى بندر كشي (Cochin) وصالحوا اهلها و بنوا فيها على ما يقول زين الدين قلعة صغيرة وهي اول قلعة بنوها في الهند واتخذوها مسكنهم وعندما استقر لهم كان في ساحل البحر و بنوا بيعة وصلوا اهلها . وكذلك صنعوا في بندر كنور . واما مؤرخو البرتقال فلا ينكرون هدم المسجد و بناء البيعة ولكنهم يقولون انهم في هذه السنة اقتصروا على بناء المخازن التجارية واما القلاع فيؤكدون انهم انما بدؤا في بندر كشي باقامة برج من الخشب في سنة ١٥٠٣ (سنة ٩٠٩ هـ) ثم شيدوا قلعة من الحجر [3] بعد ثلاث سنوات

(١) تحفة المجاهدين (٢) انظر هيد Heyd والبزيه دكلوبر Elisée Reclus (٣) لان المتداول الحجر في البناني كان في بلاد مليبار محرماً الا فيما يتعلق بها كل الاصنام (Pagodes) وقصور الملوك

واما في بندر كنتور فانهم بدأوا باقامة برج من الخشب في سنة ١٥٠٥ ثم شيدوا قلعة من الحجر في سنة ١٥٠٧

ومهما يكن من امر الحصون والقلاع فقد اتفق مؤرخو الطرفين على ان كابرال اخذ من هذين البندرين كل ما اراد من البضائع وانهُ عمون في كشي بالفلفل وفي كنتور بالقرفة والزنجبيل ورجع البرتغاليون الى « بلادهم بمقصودهم الاعظم الذي لأجلهِ قطعوا المسافات البعيدة » فعاد كابرال الى لشبونة فائزاً بغنائم ومتاجر واموال اربت على كل ما كان في الحسبان .

وبعد سنة اي في سنة ١٥٠١ (سنة ٩٠٧ هـ) ارسل عمانويل اسطولاً مؤلفاً من اربع مسماريّات . ونزلوا في كشي وكنتور وعادوا الى بلدهم بالفلفل والزنجبيل

وفي السنة التي تليها وصل فاسكو دوجاما للمرة الثانية الى ساحل مليبار بلقب « اميرال بحر الهنود » ومعهُ اسطول مؤلف من عشرين مسمارية او احدى وعشرين او اثنتين وعشرين أو ثماني عشرة كما يقول زين الدين . اما مؤرخو البرتغال فبعضهم يقول ان هذا الاسطول كان مؤلفاً من ٢٥ قطعة منها ١٢ من سفن الدولة والباقي من سفن التجار والبعض الآخر يقول ان هذه العمارة كانت مؤلفة من عشرين قطعة منها خمس مخصصة لاقتحام البحر الاحمر لتعقب سفن مكة ويقولون ان هذه الخمس قد ذهبت فعلاً الى محل مأمور بها فوقفت عند باب المندب لمنع دخول الاسطول التجاري المصري من بحر الهند واصد سفن التجارة القادمة من الهند عن الذهاب الى الموانئ المصرية . ولقد نجح هذا القسم في مهمتهِ اذ تمكن من القبض على سفينة تجارية مصرية قادمة من البحر الاحمر وفيها وسق حافل بأصناف التجارات لا يقل ثمنهُ عن ٢٤ الف دوكات (دينار بندقي) ثم انضم هذا القسم الى بقية الاسطول فساروا بقاسكو دوجاما الى بلاد مليبار فالتقى ببعض مراكب التجار مصر كانت مشحونة بالافاوية من الهند وراجعة الى السويس فنهب ما فيها من البضائع واغرقها وكان بينها مركبان [1] للسلطان الغوري فلما وصل قاسكو دوجاما الى كاليكوت ارسل للسامري سلطانها يأمرهُ باخراج العرب والمصريين وسائر المسلمين من ديار مليبار وكان عددهم لا يقل عن اربعة آلاف نسمة وكلهم من اهل الثروة واليسار المعروفين بالاستقامة والامانة فلم يرَ السامري من مصلحة بلادهِ ولا من العدل ان يجيب هذا الطلب فاطلق البرتغاليون قنابلهم على المدينة وشنوا الغارة الشعواء على السامري وقزوا عليهِ قزواً مبيناً . ثم ذهب قاسكو باسطولهِ الى ناحيتي كشي وكنتور فرأى ان سلطانيهما مخرفان عليهِ بل مجاهران لهُ

(١) [المنتخب] شهر مارس سنة ١٩٠٧

بالخصام لكنهُ نجح في استدراجهن الى المودة والعهد القديم لاسيما بعد فوزهِ على السامري وتكايته بتجار مصر في مليبار وقبضهِ على السفينة التجارية المصرية عند خروجها من البحر الاحمر . فبهذا الفوز الثالث تمكن من تسخير السلطانين لامرهِ وتيسر لهُ شراء الفلفل والتوابل والابازير بثمن يقل عما دفعهُ في المرة الاولى بمقدار ٢٠ في المائة . ولقد استخدم ما اتى بهِ من النقود الكثيرة وما اصابهُ في السفينة المصرية التي اختصها في الحصول على بضائع فوق كل ما كان يقدرهُ او ينتظرهُ حتى شحن جميع مراكبهِ وبقي من البضاعة مقدار جسيم ابقاهُ الى فرصة اخرى في المخازن التي بناها البرتقال على سواحل مليبار وغيرها من بلاد الهند واحكموا تحصينها بالقلاع وحمايتها بالمدافع والرجال ثم رجع ادراجهُ الى لشبونة في اوائل سبتمبر سنة ١٥٠٣ (ربيع الاول سنة ٩٠٩ هـ) وبحوع وسفنهِ بين ٣٠ و ٣٥ الف قنطار من الابازير (والقنطار عبارة عن ١٥٠ الى ١٦٨ رطلاً من اطال البنادقة) ومعظم هذا الوسق من الفلفل فقد كان مقدارهُ وحدهُ لا يقلُّ عن خمسة آلاف قنطار باقي الوسق من القرفة والزنجبيل وجوز الطيب هذا الى مقدار عظيم من الاحجار الكريمة والدراري الغالية القيمة بحيث بلغت قيمة الشحن مليون دينار بندقي مع ان مصاريف التجريدة كلها لم تزد على مئتي الف بمعنى أن الربح كان عبارة عن اربعمائة في المائة (٤٠٠ ٪) فضلاً عن رجوع رأس المال اي ان الدينار الواحد صار خمسة دنانير . وكان معظم الارباح للملك البرتقال طبعاً . لذلك نزلت اسعار الفلفل في بلاد البرتقال من ٤٠ بندقيًّا الى ٢٠ فقط باعتبار القنطار الواحد مع ان ثمنهُ في محل استيرادهِ لم يزد على دينارين ونصف الى ثلاثة فقط

وقبل ان تصل هذه الرسالة الى لشبونة كان ملك البرتقال قد بعث في ابريل سنة ١٥٠٣ (ذي القعدة ٩٠٨ هـ) تجريدة بحرية اخرى مؤلفة من تسع سفائن كل ثلاث تحت امرة رئيس مستقل واشهر هؤلاء الرؤساء الثلاثة الذي يعنينا الكلام عليهِ هو صاحبنا ألفونسو ألبوكرك (Albuquerque) فانهُ بمجرد وصولهِ الى الهند رأى السامري صاحب كاليكوت قد اغتنم فرصة غياب فاسكو دوجاما وخرَّب مخازن البرتقاليين وطرد ملك كشي (Cochin) الذي كان موالياً للبرتقاليين ومساعداً لهم ضد وطنهِ وقومهِ فاضطر هذا الملك الى الالتجاء الى جزيرة في البحر امام عاصمتهِ وآوى اليهِ من كان معهُ من ابناء البرتقال . فتربَّث ألبوكرك حتى انضمت اليهِ كل السفن البرتقالية التي سافرت معهُ والتي كانت سبقتهُ الى بحر الهند وسفنهُ التي كانت تائهة عن العمارة التي رسات مع فاسكو وحينئذٍ انبرى لمقاتلة السامري حتى ثقرر الصلح بينهما على غرامة يدفعها السامري قدرها ١٥٠٠ بهار

من الفلفل ١ والبهار عبارة عن ثلاثة قناطير او اربعة) ثم اعاد بناء المخازن وارجع ملك كشي الى كرسيهِ وتعهد السامري لهُ بان يمنع مراكب مكة من اخذ البضاعة من بلادهِ .

« ثم تتابع في كل سنة على هذا المنوال وصول مراكبهم العديدة من برتكال بالرجال والاموال وسفر مراكبهم الكبيرة من مليبار بالفلفل والزنجبيل وسائر البضائع الى برتكال »

رأى صفار ملوك الهند ذلك السيل المتدفق على بلادهم بل ذلك القضاء المبرم الواقع على رؤوسهم وعلموا ان لا طاقة لهم بدفع غوائل البرتقال عنهم . فلم يكن لهم مندوحة عن الاستكانة لهم والخضوع لكلمتهم فدخلوا في صلحهم وما لبثوا ان صاروا من جملة الخول والخدم . وكان في مقدمة المنقادين لامرهم اهل كشي وكنور ومن تبعهم فكانوا يشتغلون بالتجارة تحت سيطرتهم و يسافرون « في البحر مصاحبين لهم آخذين اوراقهم معهم لكل مركب علامة لامانتهم »(١) وفرض البرتقاليون على كل جواز من هذه التذاكر مالاً معيناً يدفعهُ أصحاب المركب زعانهم اي سلاطين الهند الذين يخضع لهم المسافرون حتى يكون هؤلاء الملوك الوطنيون عوناً للبرتقاليين على احتكار تجارة الهند . فكان الاسطول البرتقالي الضارب في بحار الهند إذا عثر بمركب « ليس فيهِ ورقتهم اخذوا المركب وما فيهِ ومن فيهِ »(٢) وذلك كلهُ بقصد تحريم السفر الى البحر الاحمر بتاتاً ومنع الفلفل والبهارات من الوصول الى مصر حتى لا يكون لهذه الاصناف سوق في اوربة خلاف التي في لشبونة . وعاد هذا التدبير بالضرر الاكبر على تجارة كاليكوت لان سلطانها السامري كان لا يزال معانداً للبرتقال والحرب بينهُ وبينهم سجال . هذا ما كان من امر البرتقال لغاية سنة ١٥٠٣م (سنة ٩٠٩ هـ) فقط

وقبل ان انتقل الى ما كان من شأن مصر وصديقتها وعميلتها (جمهورية البندقة) ينبغي لي لتقرير الحقيقة التي اصبحت في ذلك العهد امراً مقضياً وهي ان عمانوئيل السعيد كان الله قد اتاح لهُ كل ما يطمح اليهِ من النجاح وخدمهُ الحظ في تحقيق احلامهِ . وهو والحق يقال قد ثبت في مشروعهِ ثباتاً خليقاً بالمدح والاعجاب ولاسيما فيما حاولهُ من احتكار تجارة الهند لمنفعتهِ الشخصية ولمصلحة بلادهِ . فلم يثنهِ عن الغرض الذي وضعهُ نصب عينهِ منذ جلوسهِ على العرش ما تجشمهُ من الصعوبات والاخطار الملازمة لهذا السفر الطويل الشاق وما ترتب عليهِ من ضياع السفن الكثيرة والارواح العديدة الى ان استقرت لهُ في سنة ١٥٠٣ (سنة ٩٠٩ هـ) المذكورة السيطرة التجارية في تلك الاقطار والسيادة على ما يكتنفها من البحار .

فلا جرم ان اصبحت لشبونة وهي القابضة على زمام التجارة الهندية تصرفها على ما تريد

(١) كلام زين الدين وداڤيد لوپز David Lopez (٢) كلام زين الدين وداڤيد لوپز

وتشتهي في اوربة الغربية ان ترسل قسمًا منها كما تشاء وتبغي الى بعض جهات اوربة الشرقية نفسها وما ذلك الاَّ لمبالغة في الشكاية بالفوري وعملائه البندقة .

ولا جرم ان كان ذلك سببًا وثيقًا في بوار تجارة مصر والبندقية !

***

رأى أهل فلورنسة وجنوة نجاح البرتغاليين في تجريدتهم الاولى وتحققوا ان وساطة مصر لوشكت على الزوال وحينئذٍ تهافتوا على لشبونة قاسموا فيها محال تجارية بل ان اهل فلورنسة جهزوا على حسابهم الخاص بعض السفن التي رافقت تجريدات البرتغاليين التي توالى سيرها بعد التجريدة الاولى الى بلاد الهند وكان ذلك اول انحراف انحرفهُ الاوربيون المتربطون على شواطئ البحر الابيض المتوسط عن مصر ووساطتها والدنيا لمن غلب .

في شهر اغسطس سنة ١٤٩٩ (محرم سنة ٩٠٥ هـ) وصل الى البندقية بلاغ عن القاهرة والاسكندرية يا حدث من نزول البرتغال على كاليكوت ولكن الخبر كان ملطفًا مخففًا بحيث لا يوجب الانزعاج لان تجار مصر كانوا يخشون انحراف عملائهم البندقة عنهم وفي ذلك خسارة كبيرة عليهم ولكن الجمهورية تحققت من سفيرها في لشبونة نجاح البرتغال في كل ما حاولهُ من احتكار التجارة في اقطار الهند بل قال الملك لهذا السفير (٢٤ يونيو سنة ١٥٠١ - ٣٦ ذي القعدة سنة ٩٠٦ هـ) وقد أراهُ هذا النجاح بعيني رأسهِ هو قل لاصاطين الجمهورية واراكنة البندقية ان لا حاجة لهم بعد الآن الى ارسال سفائنهم واغراضهم الى المياه المصرية لاستحضار البهارات والابازير بل هم عما قليل لن يجدوا في اسواق تلك السلطنة شيئًا منها وليس لهم سوى ان يفدوا على بلادنا فنخص تجارهم بالحفاوة والكرامة بحيث يكونون كأنهم بين ضيعهم وفي اوطانهم » .

نزلت هذه الاخبار كالصاعقة الساحقة الماحقة على جمهورية البندقة إذ كان اساس سيطرتها واركان ثروتها قائمة على تجارتها مع المشارقة . فان هذه التجارة انتقلت الى يد البرتغال فسقطت مدينة البندقية ستوطنًا لا قيام لها بعدهُ . لان البرتغاليين يشترون الفلفل وغيرهُ من الابازير والبهارات من منابتها بالهند . يذهبون بها تورًا ومباشرة الى بلادهم دون ان يعترضهم في طريقهم ديوان (كمرك) يتقاضى شيئًا من الرسوم التي يجب اضافتها على الثمن بخلاف البندقة فانهم انما كانوا يحصلون على هذه الاصناف من عملائهم المصريين وهم لا يجلبونها من مواطنها الاَّ بعد مرورها على يد طائفة عديدة من الوسطاء والسماسرة في جدة وعدن فضلاً عن رسوم الديوان (الكمرك) دخولاً وخروجًا في هاتين المدينتين ثم

في القاهرة والاسكندرية وبيروت الى ما وراء ذلك من النفقات غير الرسمية او غير الشرعية من مجاملة ومجاراة ومحاباة ومداراة مما يزيد الثمن اضعافاً مضاعفة[1] . بهذه الوسيلة كان يستحيل على البنادقة مفاطرة مزاحميهم في اسواق اوربة . فلم يكن لهم مندوحة عن اختيار احد امرين : اما الاستكانة والتسليم ونفض ايديهم من هذه التجارة وفي ذلك القضاء المبرم على سيطرتهم وثروتهم — واما المكافحة والمقاومة والعمل على فشل البرتقاليين وفي ذلك استبقاء لمكانتهم ومحافظة على ثروتهم . ولقد اختاروا الشق الثاني فوجهوا وجههم شطر صاحب مصر السلطان الملك الاشرف ابي النصر قانصوه الغوري لاعتقادهم بانهُ لا يحجم عن بذل كل مرتخص وغال في الاحتفاظ باحتكار تجارة الهند التي هي منبع ثروته الشخصية ودعامة الرخاء واليسار في بلاده . صحت عزيمة الجمهورية على تلافي الخطب قبل استفحاله فارسلت بندتو سانوتو (Benedetto Sanuto) سفيراً الى القاهرة في اواخر خريف سنة ١٥٠٢ م (سنة ٩٠٨ هـ) وكان عليماً باحوال السلطنة المصرية إذ كان قنصلاً للجمهورية في دمشق من سنة ١٤٩٦ الى سنة ١٥٠٠ م (٩٠٢ — ٩٠٦ هـ) وفي كل تلك المدة اثبت كفاءتهُ واقتدارهُ في خدمة مصالح بلاده . وكانت مأموريته السرية ان يوقف سلطان مصر بالجملة والتفصيل على الاخطار المحدقة به وبثروة بلاده من جراء اعمال البرتقال في بلاد الهند . ولقد بعثت الجمهورية اليه وهو بالقاهرة في يوم ٤ ديسمبر (٣ جمادى الثانية) من السنة المذكورة بلاغاً يتضمن آخر ما وصل اليه البرتقال في بلاد الهند وهو مما يوجب مزيد الخوف على مستقبل مصر والبندقية معاً . وكان من ضمن التعليمات المرسلة اليه ان يعرض على مسامع السلطان : ما هو حاصل عليه هو وبلادهُ من المكاسب الناجمة عن تجارة الابازير والبهارات وان هذه التجارة اذا تحولت الى طريق البرتقال فذلك يعود عليه وعلى بلاده بالعواقب الوخيمة وان الملك البرتقال قد دعا ملك الانكليز وسائر الامم النصرانية الى شيوعة لاخذ كل ما يجلبون اليه من الفلفل والابازير بثمن بخس ورخيص وان كثيراً من سفائن اوربة مزمعة على الاقلاع الى عاصمة البرتقال لاجابة هذا النداء وان البنادقة انفسهم (وان كان يشق عليهم ان يقطعوا علاقاتهم الودية القديمة مع مصر) فانهم قد يضطرون في آخر الامر الى الانقطاع عن التردد على الاسكندرية ودمياط وبيروت وانهُ ليس لهذه التازلة من دواء سوى السعي في اقفال ثغور الهند في وجه البرتقاليين حتى

(١) كانت رسوم الجمرك المقررة حينئذٍ باعتبار ٣ في المائة يضاف اليها من اللواحق ما يعادلها كما نص عليه القلقشندي

يضطر اسطولهم لرجوع بصابورته اي من غير شحن شيء من البهارات والابازير فان هذا الامر لم تكرر مرتين اثنتين فقط فمن يرجع القوم الى الهند مرة ثالثة على الاطلاق ولذلك لأجل الوصول الى هذ الغرض يجب المبادرة بارسال سفراء من المصريين الى الهند لافهام ملوكها باسم سلطان مصر وجوب الاقلاع عن المداخلة والمعاملة مع البرتقاليين وقطع العلاقات معهم وافهامهم ان الضرر كل الضرر يعود عليهم انفسهم اذا هم آثروا هؤلاء الدخلاء على المصريين والعرب لان البرتقاليين لا يشترون منهم سوى الفلفل والابازير بخلاف المصريين والعرب فانهم يشترون منهم جميع مصنوعاتهم ومحصولاتهم ولذلك كانت معاملة الهنود معها اكثر فائدة واوفر نفعاً من الاقتصار على بيع الابازير والبهارات

ادى السفير هذه المأمورية كما ينبغي وقام بمهمته خير قيام ثم اقترح على السلطان انزال الاسعار لدرجة معقولة بحيث يتسنى للبنادقة ان يضغطوا على البرتقاليين ويبدوا المنافس والمنافذ في وجوههم فيقتطعوا تجارتهم و يسترجعوا اسواق اوربة كلها لصلحة البندقية ومصر

وفي اثناء ذلك وصل الى السلطان الغوري صريخ من الهند واليمن فقد استغاث به التجار المصريون الذين اغرق الاميرال كابرال سفائنهم امام كاليكوت . واستنجد به الساموري صاحب كاليكوت وكان للبرتقال خصماً عنيداً وعدواً لدوداً لا ينفك عن مقارعتهم والتنكيل بمن يواليهم من ملوك الهند وصرف في ذلك اموالاً كثيرة حتى ضعف هو ورعاياه ومن والاه . وارسل سلطان نجرات السلطان ناصر الدين ابو الفتح مظفر شاه خليل بن محمود شاه بن محمد شاه بن احمد شاه بن محمد شاه بن مظفر شاه يستمدي الغوري على البرتقال لتعديهم على بلاده ويطلب منهُ العدد والآلات والمدافع لدفع ضررهم عن المسلمين . ومن استجار بالغوري وطلب منهُ انجدة على الافرنج السلطان عامر بن عبد الوهاب صاحب اليمن لكثرة ضررهم في بحر اليمن وبنادره وتواتر اذاهم وضعف جنود المسلمين بذلك الديار عن مقاومتهم لعدم ممرنتهم بحرب البحار واستعمال المدافع

بهذه المثابة اجتمعت المنفعة التجارية المالية والمصلحة السياسية الدينية . فتحرك السلطان الغوري لهذين العاملين القويين وامر بانشاء اربعة لخربة حربية في دار الصنعة (ترسانة) بالقاهرة ثم حملها على ظهر الجمال وهي مفككة قطعاً قطعاً حتى وصلت الى ثغر السويس ومن هناك تولى العمال الاختصاصيون تركيبها وانزالها في البحر . قصد السلطان بارسالها الى بلاد الهند ان تكون كنموذج للسفائن الحربية المصرية في شكل طليعة للاسطول السلطاني الذي سيباشر القتال مع البرتقال وصل هذا الخبر الى جمهورية البنادقة عن لسان دومينكو كابللو Domenico Capello

قنصلها في القاهرة في جملة ما وافاها بهِ من الاخبار والماجريات ضمن مسطورهِ المؤرخ في ٢٤ نوفمبر سنة ١٥٠٩ (١٠ شعبان سنة ٩٠٥ هـ) ولم يقف سلطان مصر عند هذا الحد من الابتداء في دفع البرتقال بل لجأ ايضاً الى الطرق السياسية فكلّف الراهب الاسباني موروس (Maurus) حارس دير جبل صهيون بمدينة القدس وهو من طغمة الفرنسيسكانيين بان يذهب الى اوربة في السفارة عنهُ لدى البندقية فالبابا فملك اسبانيا فملك البرتقال

كان وصول هذا السفير الى البندقية في يوم ٥ مارس سنة ١٥٠٤ (١٧ رمضان سنة ٩٠٩) وسلم جمهوريتها كتاباً لطيفاً من السلطان يقول فيهِ انهُ كثير العناية شديد الاهتمام باستمرار العلاقات التجارية بين بلادهِ وبين الجمهورية ويرجوها فيهِ ان تشدد أزر سفيرهِ الراهب بتوصية ملوك اوربة عليهِ . لكن الجمهورية امتنعت عن ذلك لاسباب كثيرة أخصها انها كانت تميل الى اجتناب كل ما يشتم منهُ انها هي التي حرّضت سلطان مصر على هذه المأمورية وتخوفها من ان مساعيها ربما تأتي بعكس المطلوب وثالثاً لانها كانت مصافية لاسبانيا وللبرتقال فكان من واجبها عدم الاحتكاك بهما مواجهة . فلذلك قررت الوقوف على الحياد المشرب بالميل لمصر وسلطانها . فانطلق السفير المصري الى رومية في ربيع سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) وقدم للحبر الاعظم شكوى سلطان مصر من فرديننند الكاثوليكي ملك اسبانيا ومن عمانويل السعيد ملك البرتقال لان الاول تجاوز كل حد في اضطهاد المسلمين بغرناطة ولان الثاني لا يزال يواصل مساعيهُ في الهند اضراراً بمصالح السلطان وان هذا وذاك ربما يجران السلطان الى الاقدام على مالا يريد من الانتقام بما يهدم الاماكن التي تعظمها النصرانية في القدس الشريف وهي القبر المقدس (كنيسة القيامة) ودير جبل صهيون وأشباهها وبما يطرد جميع النصارى من ممالكهِ . هذا الخطاب السلطاني للكرسي البابوي مؤرخ في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٠٣ (آخر ربيع الاول سنة ٩٠٩ هـ) وقد ضاع اصلهُ العربي في جملة ما ابادهُ الحدثان من كنوز مصر العلمية التاريخية واوراقها ومستنداتها الرسمية ولكن احد مؤرخي البرتقال وهو جويس (Goes) قد حفظ لنا ترجمتهُ الكاملة باللغة البرتقالية في التأليف الذي كتبهُ عن حياة الملك عمانويل (Chronica do Rey Emanuel) وبناء على إلحاح السفير المصري كتب البابا يوليوس الثاني الى عمانويل يحضهُ على العدول عن مشروعاتهِ في الهند ولكنهُ لم يرضَ بالرد على سلطان مصر قبل ان يسمع اقوال المتهمين . وحينئذٍ خرج موروس من رومية في سنة ٥٠٥ (سنة ٩١١ هـ) الى اسبانيا والبرتقال ولكنهُ فشل في الاولى ولم ينجح في الثانية بل ان ملك البرتقال جاوب البابا

بكتابه المؤرخ ١٢ يونيو سنة ١٥٠٥ (سنة ٩١٠ هـ) يلتمس من جانب قدسه ان لا يعير تهديدات السلطان ادنى التفات لان الايرادات العظيمة التي ينالها الفوري من خراج الاماكن المقدسة تحول بينهُ وبين ما يتظاهر بهِ من قصد هدمها وقال عمانويل انهُ لا يعبأ قط بهذا الوعيد الفارغ

وفي اثناء ذلك كانت جمهورية البندقة قد ارسلت سفيراً آخر الى القاهرة وهو برناردينو جوفا (Bernardino Giova) ولقد استقبلهُ السلطان الغوري في قلعة الجبل في يوم ٢٤ مايو سنة ١٥٠٤ (٩ ذي الحجة سنة ٩٠٩ هـ) فاحاطهُ علماً بان البرتغاليين لا يزالون يعيثون باساطيلهم التجارية الى الهند دون ان يكون في وسع البندقية الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون وان الايازير تنهال على الشونة باسعار ارخص كثيراً مما هي في سوق دمياط والاسكندرية وان البرتغاليين يبيعونها لهذا السبب باثمان منحطة في انكلترا وفرنسا وفلندره وايطاليا وسائر بلاد اوربة بان كثيراً من التجار البندقة عولوا على معاملة الشونة حيث الرسوم الكركية معدومة وانهُ مع ذلك كلهِ فلا تزال الجمهورية ميالة للتمسك بعلاقاتها القديمة مع مصر ولذلك فامله وطيد في ان السلطان ينجح في اعادة المياه الى مجاريها بارجاع التيار التجاري الى وجهتهِ الاولى وانها للوصول الى هذه النتيجة تسمح لنفسها بان تستميح الاذن من السلطان بان يفعل ما تشير بهِ عليهِ وهو: اولاً — استحضار اكثر ما يمكنهُ من الايازير والقذف بها في اسواق اوربة لمزاحمة التجارة البرتغالية وتبويرها. ثانياً — المبادرة الى ارسال وكلاء سياسيين الى كشي (Cochin) وكنور (Cananore) لتفهيم ملكيها ان مصلحتهم الحالية ومصلحة بلادهم المستقلة تقضي عليهما بقطع ما بينها وبين البرتغال من علاقات الود والولاء التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب حتى اذا ما ادركا الشراك التي نصبها لهم البرتغاليون ثاب اليهما الرشد وحفظا لانفسهما الملك الموروث لهما وابقياه لاعقابهما والا فالعاقبة وخيمة عليهما إذ لا بد للبرتغاليين من الاستيلاء على بلادهما في يوم قريب او بعيد وثالثاً ارسال السفراء الى الشريف سلطان كاليكوت والى سلطان كنباية (Cambaye) لتعضيدهما فيما اخذا بهِ من مدافعة البرتغاليين عن بلادهما. ثم ان السلطان أحسن كل الاحسان في ارسال بعض الشوانى الحربية الى تلك المياه ولكنهُ يحسن بهِ ان يرسل غيرها ايضاً ليستبقي هيبتهُ وسطوتهُ وليصون تجارتهُ وثروتهُ

« ستأتي البقية »

احمد زكي باشا
سكرتير مجلس الوزراء